

إطلالة على الفكر الأنثروبولوجي القديم

An overview of ancient anthropological thought

د. سليمان دحماني¹

جامعة مولود معمري، تيزي وزو

slimane.dahmani@ummtto.dz

تاريخ الوصول 2021/12/03 القبول 2022/03/30 النشر على الخط 2022/09/15

Received 03/12/2021 Accepted 30/03/2022 Published online 15/09/2022

ملخص:

لقد سعينا من خلال هذه الورقة البحثية، إلى تقديم لمحة عامة عن الفكر الأنثروبولوجي القديم، أي تلك الآراء والأفكار التي ساهم بها بعض الفلاسفة والمؤرخين والرحالة، في مجال الدراسة البشرية من وجهة نظر طبيعية واجتماعية وثقافية، قبل ظهور الأنثروبولوجيا كعلم جديد. وفي هذا السياق، قمنا بتتبع تطور هذا الفكر ابتداءً من العصور القديمة عند اليونان والرومان، ومروراً بالعصور الوسطى عند الأوروبيين وعند العرب المسلمين، ووصولاً إلى عصر النهضة في القارة الأوروبية، كما حاولنا التعرف على أهم خصائصه.

وتوصلنا في الأخير إلى استنتاج عام مفاده أن الأنثروبولوجيا، التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر كنظام جديد للمعرفة، كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتراث الفكري الذي ساد في أوروبا في القرن الثامن عشر، أي في عصر الأنوار.

الكلمات المفتاحية: الفكر الأنثروبولوجي، العصور القديمة، العصور الوسطى، عصر النهضة الأوروبية، عصر الأنوار.

Abstract:

We have sought, through this research paper, to provide an overview of ancient anthropological thought, that is, those views and ideas that some philosophers, historians and travelers contributed to in the field of human study from a natural, social and cultural point of view, before the emergence of anthropology as a new science. In this context, we traced the development of this thought, starting from the ancient times of the Greeks and Romans, through the Middle Ages among the Europeans and the Muslim Arabs, and reaching the Renaissance in the European continent, and we also tried to identify its most important characteristics.

Finally, we come to the general conclusion that anthropology, which emerged in the late nineteenth century as a new discipline of knowledge, was closely connected with intellectual heritage that prevailed in eighteenth century in Europe, That is, in the age of enlightenment.

Keywords: Anthropological thought, Antiquity, the Middle ages, The European renaissance, the age of enlightenment.

1. مقدمة

تسعى الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) إلى دراسة الإنسان بصورة شمولية تكاملية: أي في الحاضر كما في الماضي؛ ومن الناحية الفيزيائية والبيولوجية، ومن الناحية الاجتماعية والثقافية كذلك، فتحاول الكشف عن الصفات البيولوجية التي تميز الجنس البشري عن غيره من الكائنات الحية الأخرى، وتلك الصفات التي تميز مختلف السلالات وتفرعاتها، كما تحاول في الوقت ذاته التعرف على طبيعة الثقافة الإنسانية وعوامل تغيرها، وتحديد أوجه الاختلاف والتشابه بين مختلف الثقافات عن طريق الدراسة المقارنة.

وبالرغم من أن الأنثروبولوجيا نشأت في القرن التاسع عشر في أوروبا، وتحديدا في فرنسا وألمانيا وبريطانيا، نتيجة للتغيرات الفكرية والسياسية والاقتصادية، التي عرفتها هذه البلدان، إلا أن لهذا العلم امتدادات في التأملات الفلسفية، والكتابات التاريخية، والأعمال الأدبية منذ العصور القديمة، لأن موضوع اختلاف المجتمعات الإنسانية وتشابهاها من حيث النواحي الجسمية والثقافية، كالعادات والتقاليد، والأعراف، والمعتقدات الدينية... إلخ، قد جذب انتباه كثير من المفكرين القدماء؛ علاوة على دور المبادلات التجارية، والمهجرات، والحروب التي سهلت عملية الاتصال بين الشعوب وتعارفها.

ويمكن القول أن أعلام الفكر الأنثروبولوجي القديم قد انقسموا إلى فريقين: يركز الفريق الأول على الخصوصيات الثقافية لكل مجتمع، بينما يركز الفريق الثاني على العناصر المتشابهة بين المجتمعات والثقافات، ويقوم مثل هذا النمط الشمولي من الفكر والذي يبحث عن ترسيخ التشابهات وليس الاختلافات بين جماعات الناس، بلعب دور بارز إلى هذا اليوم. ناهيك عن أنه يبدو جليا أن الأنثروبولوجيا صعودا خلال التاريخ تأرجحت بين الموقف الشمولي والموقف النسبي، وأن الأشخاص المؤثرين في الأنثروبولوجيا غالبا ما يقال إنهم إما جنحوا نحو هذا الموقف أو ذاك⁽¹⁾.

كما تجدر الإشارة إلى أن الفكر الأنثروبولوجي القديم قد عبر بصورة واضحة عن تلك النزعة المركزية لدى الشعوب، التي تؤدي في غالب الأحيان إلى تمجيد الثقافة المحلية، والاستهانة بالثقافات الأجنبية، باعتبارها هجينة أو بدائية، ولعل خير مثال على ذلك نظرة الاحتقار التي نظر بها اليونان والرومان والصينيون القدماء عموما إلى ثقافات الشعوب الأخرى؛ كما عبر هذا الفكر أحيانا أخرى عن نزعة التسامح، التي تدفع إلى احترام ثقافة الآخر وتقديرها، وأبرز مثال على ذلك ما كتبه تاسيتوس عن بلاد الجرمان، وما كتبه لاحقا كل من مونتاني وجان جاك روسو حول ثقافات الشعوب البسيطة التي تعيش خارج نطاق القارة الأوروبية.

ونوه بالقول هنا، إلى أننا سوف نحاول الإجابة عن السؤال المركزي التالي: إلى أي مدى ارتباطت الأنثروبولوجيا كمجال معرفي حديث بهذا الفكر؟ وذلك من خلال المنهج التاريخي في تتبع تطور الفكر الأنثروبولوجي القديم عبر الفترات التاريخية الآتية: العصور القديمة عند اليونان والرومان-العصور الوسطى عند الأوروبيين وعند العرب المسلمين- عصر النهضة في القارة الأوروبية؛ واعتمادا على ما كتبه بعض الفلاسفة، والمؤرخين، والرحالة أنفسهم، أو ما كُتب عنهم في المؤلفات التي خصصت لدراسة تاريخ الأنثروبولوجيا على العموم.

(1) توماس هيلاند إريكسن وفين سيفرت نيلسن، تاريخ الأنثروبولوجيا، ترجمة وتقديم عبده الرئيس، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2014، ص 17.

2. الفكر الأنثروبولوجي في العصور القديمة

يُجمع مؤرخو الفكر الأنثروبولوجي على أن الرحالة اليوناني هيرودوت (Herodotus) الملقب بأبي التاريخ، الذي عاش ما بين 484 و425 ق.م، هو أيضا الأب الأول للأنثروبولوجيا، ويرى عالم الجغرافيا المصري محمد رياض في مؤلفه الموسوم بـ"الإنسان: دراسة في النوع والحضارة"، أن كتابات هيرودوت التاريخية تزخر بذكر الصفات الحضارية للشعوب التي زارها وسجل عنها ملاحظاته. ولعل ميزة هيرودوت أنه يُسجل كثيرا ويُنظر قليلا، فأعطانا خامة جيدة لما كانت عليه بعض العادات والطقوس والاحتفالات في هذا التاريخ المبكر، وسنرى أن ملاحظاته عن شعب ليكا (Lycia) في آسيا الصغرى قد أثارت فكرة إثنولوجية هائلة في تطور مراحل الأسرة من النسب الأموي إلى النسب الأبوي⁽¹⁾.

ولقد قدم هيرودوت وصفا دقيقا لمصر القديمة وعادات شعبها وتقاليده، حيث نجد على سبيل المثال يقول بشأن الطقوس الجنائزية عند المصريين القدماء، ما يلي: وفي غير مصر يطلق كهنة الآلهة شعورهم أما في مصر فيحلقونها. ويقضي العرف عند سائر الشعوب بأن يخلق أقارب المصاب رؤوسهم أثناء الحداد. ولكن المصريين إذا نزلت بساحتهم محنة الموت يطلقون شعر الرأس واللحية⁽²⁾.

كما قدم هيرودوت وصفا آخر للقبائل البدوية التي كانت تعيش في ليبيا، من حيث تكوينهم العرقي، ونمط معيشتهم، ولقد عبر عن ذلك بقوله: أن في ليبيا أربعة أجناس، اثنين من أهل البلد الأصليين واثنين من خارجها. إن أهل البلد الأصليين هم الليبيون الذين يحتلون المنطقة الشمالية، والأثيوبيون الذين يحتلون الأجزاء الجنوبية من البلد. أما الأجناس الوافدة منهم: الفينيقيون واليونانيون⁽³⁾.

أما الفيلسوف اليوناني أرسطو (Aristotle) الذي عاش ما بين 384 و323 ق.م، فقد انغمس بدوره في التأملات الفلسفية عن طبيعة الجنس البشري. وفي الأنثروبولوجيا الفلسفية الخاصة به يناقش الاختلافات بين البشر والحيوانات على وجه العموم، ويستنتج أنه رغم وجود حاجات مشتركة بينهم وبين الحيوانات، فالإنسان وحده هو الذي يحظى بالعقل والحكمة والأخلاق. ولقد دفع أيضا بأن البشر في الأساس اجتماعيون بطبيعتهم⁽⁴⁾. ويعد أرسطو من الفلاسفة القدماء الذين ساهموا مساهمة هامة في دراسة النظم الاجتماعية، لاسيما من خلال وصف وتحليل نشأة الدول وأنماطها.

وإذا يمينا وجوهنا شطر عصر الامبراطورية الرومانية الذي استمر حوالي ستة قرون، نجد أن الرومان قد اهتموا بالجوانب العملية الملموسة لتوطيد دعائم الحكم، ولم يولوا اهتماما كبيرا للجوانب النظرية التي تعالج مسألة أحسن النظم في بناء المجتمعات والدول، لذلك فإن المتأمل في تاريخ الفكر الروماني لا يكاد يجد ما يمهد لظهور علم مستقل يختص بدراسة الإنسان طبيعياً واجتماعياً وثقافياً، عدا بعض المحاولات القليلة، وأبرزها ما يلي:

(1) محمد رياض، الإنسان: دراسة في النوع والحضارة، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2014، ص 267.

(2) محمد صقر خفاجة، هيرودوت يتحدث عن مصر، القاهرة، دار القلم، 1966، ص 120.

(3) علي فهمي خشيم، نصوص ليبية: من هيرودوتس، سترابو، بليني الأكبر، ديودوروس الصقلي، بروكوبيوس القيصري، ليون الإفريقي، طرابلس، دار مكتبة الفكر، 1967، ص 97.

(4) توماس هيلاند إريكسن وفين سيفرت نيلسن، مرجع سبق ذكره، ص 16.

- أشعار كاروس لوكرتيوس (Titus Lucretius Carus) الذي عاش بين 98 و 55 ق.م التي تضمنت أفكارا حول طبيعة الكون ونشأة الإنسان وتطوره. ونشير هنا إلى أن لوكرتيوس قد تناول عدة موضوعات عرضها في ستة أبواب رئيسية، ضمنها أفكاره ونظرياته في المادة وحركة الأجرام السماوية وشكلها، وتكوين العالم (...). وخصص الباب السادس لعرض فكري: التطور والتقدم، حيث تحدث عن الإنسان الأول والعقد الاجتماعي، ونظامي الملكية والحكومة، ونشأة اللغة، إضافة إلى مناقشة العادات والتقاليد والفنون والأزياء والموسيقى⁽¹⁾. ولقد تأثر بعض العلماء، مثل الأنثروبولوجي الأمريكي لويس مورغان (Lewis Morgan) بفكرة التطور والتقدم، والانتقال من مرحلة إلى أخرى، التي ساقها لوكرتيوس.

- كتابات المؤرخ بابليوس كورنيليوس تاسيتوس (Publius Cornelius Tacitus) الذي قام بوصف شعوب الإمبراطورية الرومانية في كتابيه: "التواريخ"، و"الحوليات". ويعد تاسيتوس حسب عالم الأنثروبولوجيا بيرتي ج. بلتو (Pretti J. Pelto) أفضل مثال قديم على "الدراسة الإثنوغرافية" عن ثقافة بدائية خاصة في كتابه الموسوم "جرمانيا" 98 ق.م. وصف تاسيتوس أخلاق وعادات القبائل الجرمانية وبيئتهم الجغرافية. كتب محذرا زملاءه الرومانيين من قوة الجرمانيين وشجاعتهم لأنه رأى فيهم برابرة (همجا) غير فاسدين يمكن أن يسبوا سقوط روما الآيلة إلى الانحلال. وقد لاحظ بإعجاب أنه لا أحد في ألمانيا يجد الرذيلة أمرا ممتعا أو يسميها شيئا عصريا في أن يفسق أحد أو يفسق به⁽²⁾.

ويقول تاسيتوس في السياق ذاته، ما يلي: وشروط الزواج في هذه البلاد صارمة متشددة. وليس في عادات أهلها ما يستحق الثناء والمديح أكثر من هذه العادة. والواقع أنهم يكادون ينفردون دون سائر الشعوب البربرية بأنهم يكتفون بامرأة واحدة، باستثناء عدد ضئيل جدا منهم يتخذون عدة نساء، وذلك لا بدافع الفحش والتهتك بل لأن أسرا عديدة تطمح إلى مصاهرتهم بحكم انتمائهم إلى عليية القوم⁽³⁾.

- الكتابات الجغرافية للرحالة والجغرافي والفيلسوف والمؤرخ سترابو (Strabo) الناجمة عن رحلات كثيرة ومشاهدات وملاحظات دقيقة، ويحاول سترابو أن يوضح آثار العوامل الجغرافية والمناخية على شكل الحضارات وتطورها⁽⁴⁾. ولقد عاش سترابو خلال الفترة الممتدة بين 64 ق.م و 24 م، وشهد فترة انتقال الجمهورية الرومانية إلى الإمبراطورية الرومانية.

3. الفكر الأنثروبولوجي في العصور الوسطى تمتد العصور الوسطى من القرن الرابع إلى غاية القرن الرابع عشر الميلادي، وسميت كذلك، لأنها من الناحية التاريخية وقعت في الفترة ما بين نهاية تألق ورواج الفلسفات الأوروبية القديمة، ممثلة في

(1) حسين محمد فهم، قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، رقم 98، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، فبراير 1986، ص 39.

(2) بيرتي ج. بلتو، دراسة الأنثروبولوجيا: المفهوم والتاريخ، ترجمة كاظم سعد الدين، سلسلة عالم الحكمة، رقم 24، بغداد، بيت الحكمة، 2010، ص 32.

(3) جاك لومبار، مدخل إلى الإثنولوجيا، ترجمة حسن قبيسي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1997، ص 39.

(4) محمد رياض، مرجع سبق ذكره، ص 267.

الفلسفة اليونانية، والفلسفة الرومانية، وبداية عصر النهضة الأوروبية، وعُرفت أيضا بالعصور المظلمة في أوروبا، نظرا إلى تراجع الفكر الإنساني فيها تراجعاً كبيراً.

1.3. العصور الوسطى في أوروبا

تميزت العصور الوسطى في أوروبا بسيطرة رجال الكنيسة على كافة مجالات الحياة، وأُدينت أية أفكار تخالف تعاليمهم، فتدهور الفكر العقلاني، وتراجع أمام الفكر اللاهوتي الذي يقدم تفسيرات بعيدة عن الحقائق العلمية للظواهر الطبيعية والاجتماعية. ولقد ظهرت في هذه المرحلة محاولات عدة للكتابة عن بعض الشعوب، إلا أنها اتسمت بالوصف التخيلي، بعيدة عن المشاهدة المباشرة على أرض الواقع. مثال ذلك، ما قام به الأسقف الإسباني إيسيدور (Isidor) الذي عاش ما بين 560 و636 م، حيث كان أعد موسوعة عن المعرفة في القرن السابع الميلادي، وأشار فيها إلى بعض تقاليد الشعوب المجاورة وعاداتهم، ولكن بطريقة وصفية عفوية، تتسم بالسطحية والتحيز. فقد ذكر مثلاً أن قرب الشعوب أو بعدها عن أوروبا يحدد درجة تقدمها. فكلما كانت المسافة بعيدة، كلما كان الانحطاط والتدهور الحضاري مؤكداً. ليس هذا فحسب، بل أنه وصف أولئك الناس الذين يعيشون في أماكن نائية، بأنهم سلالات غريبة الخلقة حيث تبدو وجوههم بلا أنوف⁽¹⁾.

2.3. العصور الوسطى عند العرب المسلمين

وتمتد هذه العصور من منتصف القرن السابع الميلادي، إلى نهاية القرن الرابع عشر تقريباً، حيث بدأ الدين الجديد في التوسع خارج حدود الجزيرة العربية التي ظهر فيها لأول مرة، بفضل الفتوحات الإسلامية، وبدأت معه مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في الازدهار والانتشار.

ولقد تطلبت الأوضاع الجديدة الناتجة عن الفتوحات الإسلامية، الاطلاع على أحوال الشعوب في البلاد المفتوحة قصد إدارتها. ولهذا السبب، شرع العلماء المسلمين في وضع المعاجم الجغرافية، "كمعجم البلدان" للأديب والشاعر شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي المشهور بـ "ياقوت الحموي"؛ وشرعوا أيضاً في تأليف الموسوعات الضخمة التي بلغت أوجها في القرن الرابع عشر الميلادي، مثل "مسالك الأبحار في ممالك الأمصار" للأديب والمؤرخ أبي العباس شهاب الدين أحمد بن فضل الله بن يحيى بن أحمد العمري، و"نهاية الأرب في فنون الأدب"، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري.

كما ظهر في هذه الفترة عدد من المؤرخين والرحالة، الذين لا يمكن إنكار إسهاماتهم في مجال الفكر الأنثروبولوجي، ولقد تضمنت كتاباتهم مادة إثنوغرافية، عكست إلى حد كبير اهتمامهم بوصف عادات وتقاليد الشعوب، ومن هؤلاء نذكر:

– أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الذي اختص في دراسة إقليم شبه الجزيرة الهندية، وألف كتاباً عنوانه: "تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة"، ولقد اقترب المنهج الذي استخدمه البيروني في رصد الظواهر الاجتماعية والثقافية، من المنهج الإثنوغرافي الحديث الذي يعتمد على الملاحظة بالمشاركة في تسجيل الوقائع الإثنوغرافية، لذلك نجد الأكاديمي الباكستاني الأمريكي أحمد أكبر صلاح الدين يقول بهذا الخصوص ما يلي: وإذا كان علم الإنسان يقوم على الملاحظة من الداخل على نطاق واسع في

(1) حسين محمد فهيم، مرجع سابق، ص 42-43.

الثقافات الأخرى، والإفادة من المادة العلمية التي تجمع بالتحليل المحايد، وبالرأي البريء من الهوى من بدايته، وباستخدام الطريقة المقارنة، فإن البيروني يكون عالما من علماء الإنسان بأرقى المعايير المعاصرة⁽¹⁾.

-أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، صاحب كتاب: "مروج الذهب ومعادن الجوهر". ويرى الباحث التونسي إبراهيم جدلة أن المسعودي قدم في كتاباته العديد من المعلومات الأثروبولوجية المهمة عن شعوب المناطق التي زارها وذكر النباتات والكائنات الحية، والأجناس البشرية والصفات الجسمية للسكان مع التأكيد على عاداتهم وتقاليدهم بخصوص المأكّل والمشرب والطقوس الخاصة بالاحتفالات والأفراح العامة والخاصة أو التي تخص المآتم والجنازات (...). ومهما كانت صحة هذه المعلومات ومهما كان مدى إثباتها علميا فإنها تعكس قدرة المسعودي على التأويل من جهة وتشبعه بروح البحث من جهة أخرى. هو لا يورد الأخبار فقط بل يحاول دائما إعطاءنا تفسيرات ولو كانت تبدو غير منطقية أحيانا والأهم من ذلك أنه من العلماء القلائل الذين اهتموا مبكرا بالإنسان ومجال عيشه وكيفية تصرفه ولم يكن سيتأتى له ذلك لولا تشبعه بنفس علمي عميق لتفسير الظواهر الطبيعية والبشرية⁽²⁾.

-محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة الذي ألف الكتاب الموسوم بـ"تحفة النظار وغرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، ولقد علق محمد حسين فهيم على رحلة ابن بطوطة بقوله: وهكذا نجد فيما أورده ابن بطوطة من معلومات مثالا آخر وشاهدا كبيرا على مدى إسهام تلك الرحلة وغيرها في التعريف بهذا العالم، وأقطاره، وشعوبه وبالناس والأقوام في خلقتهم وخلقهم- إن صح هذا التعبير- وذلك إبان تلك الحقبة الزمنية التي لم يكن السفر البعيد عبر البراري والبحار سهلا ولا ميسرا إلا لمن استهوتهم الرغبة في الاكتشاف ومن دفعتهم المغامرة وحب الجديد والتغيير إلى التجوال في البقاع، ومخالطة الناس والأقوام⁽³⁾.

-أحمد بن العباس بن راشد بن حماد البغدادي المعروف بابن فضلان، الذي أرسله الخليفة العباسي المقتدر بالله في بعثة إلى ملك الصقالبة (البلغار)، في عام 921 م، فدوّن مشاهداته خلال رحلته التي قام بها إلى تلك البلاد، وقدم وصفا دقيقا لما شاهده حول وضع الرجل والمرأة في المجتمع، وأنماط العمارة، وأساليب العيش، وطرق دفن الموتى، والعقائد الدينية. ولقد شكلت رحلة ابن فضلان أساسا لرواية مايكل كرايتون (Michael Crichton) "أكلة الموتى"، التي تحولت إلى فيلم روائي بعنوان: "المقاتل الثالث عشر"، صدر في عام 1999.

-المؤرخ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي المعروف بابن خلدون، الذي عاش ما بين 1332 م و1406م، صاحب كتاب: "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"،

(1) أحمد أكبر صلاح الدين، نحو علم الإنسان الإسلامي: تعريف ونظريات واتجاهات، ترجمة عبد الغني خلف الله، سلسلة إسلامية المعرفة، رقم 05، واشنطن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1990، ص 114.

(2) إبراهيم جدلة، "في نشأة علم الإناسة عند المسلمين: أبو الحسن علي المسعودي والرحلة لاكتشاف ومعرفة الآخر"، عصور الجديدة، عدد 19-20، أكتوبر 2015، ص 62.

(3) حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، رقم 138، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، يونيو 1989، ص 24-25.

ولاسيما مقدمته التي أرسى فيها قواعد علم العمران البشري (علم الاجتماع)، وتناول فيها عدة موضوعات تمت بصلة إلى الأنثروبولوجيا، نوجزها على النحو الآتي:

تأثير العوامل المناخية في الصفات السلالية والسلوك: وهذا ما أشار إليه علي عبد الله الجباوي في كتابه بعنوان: "الفكر الأنثروبولوجي في التراث الفكري العربي"، حين قال: لقد نأى ابن خلدون بأسباب نشأة وتكون الصفات السلالية عند أفراد النوع البشري عن الأقوال ذات السمة الخرافية، والتي تقول بأن النماذج السلالية الثلاثة-الأبيض، والأسود، والأسمر-تعود في صفاتها العضوية السلالية إلى أولاد سيدنا نوح عليه السلام وهم: يافت، حام، سام (...). وعزا ابن خلدون تكون الصفات السلالية عند البشر إلى عوامل الطبيعة الصرفة وخاصة عنصر الحرارة والبرودة فقط (...). وأشار ابن خلدون إلى أن الصفات السلالية ليست ثابتة وإنما هي في حالة من التغير التدريجي، فيما إذا انتقل الأفراد حاملتي تلك الصفات من المناطق التي ولدوا وعاشوا فيها وأجدادهم، إلى بيئة جغرافية جديدة مغايرة بعناصرها الطبيعية لكل من مثيلات تلك العناصر في بيئتهم القديمة، حيث يكتسب هؤلاء الأفراد الجدد الصفات السلالية التي تتماشى والعناصر الطبيعية لبيئتهم الجغرافية الجديدة، وذلك من خلال مسيرة زمنية طويلة يسلكها ذلك التغير التدريجي العضوي لصفاتهم السلالية التي كانوا يحملونها عند انتقالهم⁽¹⁾.

كما ربط ابن خلدون سلوك الإنسان ومزاجه بعوامل الطبيعة المحيطة به، فنجدده يقول في أخلاق وسلوك الإنسان المتباينة بين بيئة جغرافية إلى أخرى ما يلي: وقد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش، وكثرة الطرب، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع، موصوفين بالحمق في كل قطر، والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور، وهي انتشار الروح الحيواني وتفشيته. وطبيعة الحزن بالعكس، وهو انقباضه وتكاثفه. وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء، وللبحار، مخلخلة له زائدة في كميته، ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه؛ وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية، التي تبعثها سؤره الخمر في الروح، من مزاجه، فيتغشى الروح، وتجيء طبيعة الفرح (...). ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها بالتوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب، حتى أن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة، ويباكر الأسواق لشراء قوت يومه مخافة أن يرزأ شيئا من مدخره، وتتبع ذلك في الإقليم من البلدان تجد في الأخلاق أثرا في كفيات الهواء- والله الخلاق العليم⁽²⁾.

تأثير البيئة الجغرافية على أجسام الناس وسلوكهم عن طريق الغذاء: إذ يرى ابن خلدون أن سكان الصحاري والبادية، الذين يتناولون الألبان ومشتقاتها، بشكل دائم، مع قليل من الحبوب، تكون أجسامهم أكثر تناسقا، وأفضل صحة من السهول والأراضي المرتفعة كمناطق الجبال والهضاب، حيث الفواكه والخضار والعيش الرغيد، مما يجعل أجسام تلك المناطق غير متناسقة في أبعادها لاكتنازها بالشحم، وكثرة نسبة كمية السوائل في أجسامهم، وخاصة عنصر الماء. وتؤثر الرطوبة الزائدة في الأجسام على قدراتهم الذهنية، واعتدال صحتهم، وعدم صفاء بشرتهم⁽³⁾؛ ويقول ابن خلدون في هذا الصدد ما يلي: والسبب في ذلك -والله أعلم- أن كثرة الأغذية، وكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة ورطوبتها تولد في الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها بعد أقطارها في غير نسبة ويتبع

(1) علي عبد الله الجباوي، الفكر الأنثروبولوجي في التراث الفكري العربي، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 1996، ص 282.

(2) عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تقديم وتحقيق إيهاب محمد إبراهيم، القاهرة، مكتبة ابن سينا، 2009، ص 95-96.

(3) علي عبد الله الجباوي، مرجع سبق ذكره، ص 292.

ذلك انكشاف الألوان، وقبح الأشكال من كثرة اللحم كما قلناه. وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أجزائها الرديئة، فتجيء البلاد والغفلة والانحراف على الاعتدال بالجملة⁽¹⁾.

مسألة قيام الدولة وتطورها: وذلك عبر مراحل من البداوة إلى الحضارة في دورة تشبه دورة حياة الكائن الحي؛ إذ أكد ابن خلدون أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص، وحدد عمر الدولة بمئة وعشرين سنة موزعة على ثلاثة أجيال، وفي هذا يقول: وإنما قلنا إن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال: لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشترار في المجد، فلا تزال بذلك سؤرة العصبية محفوظة فيهم، فحدهم مرهف، وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون. والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترف من البداوة إلى الحضارة ومن شظف العيش إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة، فتتكسر سؤرة العصبية بعض الشيء، وتؤنس منهم المهانة والخضوع (...). وأما الجيل الثالث فينسبون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تفنقوه من النعيم وغضارة العيش، فيصبرون عيالا على الدولة، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبية بالجملة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة، ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة بموهون بها، وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها. فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعتهم، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة، ويستكثر بالموالي، ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء، حتى يتأذن بانقراضها، فتذهب الدولة بما حملت. فهذه كما تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها⁽²⁾.

ولا شك أن دراسة ابن خلدون لتأثير العوامل المناخية في الصفات السلالية والسلوك، ودراسته لتأثير البيئة الجغرافية على أجسام الناس وسلوكهم عن طريق الغذاء، تتصلان بما نعرفه اليوم باسم الأنثروبولوجيا الفيزيائية (العضوية/ البيولوجية)، أما دراسته لمسألة قيام الدولة وتطورها، فتقترب مما يعرف حالياً بالأنثروبولوجيا السياسية.

4. الفكر الأنثروبولوجي في عصر النهضة الأوروبية

بدأ عصر النهضة الأوروبية في نهاية القرن الرابع الميلادي، حيث شرع في ترجمة العلوم اليونانية والعربية، كما ظهرت بالموازات مع ذلك حركة الاكتشافات الجغرافية، وتلا ذلك الانتقال من الفلسفة إلى العلم التجريبي، في دراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية. وفي هذا العصر لم يتأثر العلماء بإعادة اكتشاف الفكر الإغريقي الروماني فقط، ولكنهم تأثروا كذلك بالشواهد الحديثة عن شعوب العالم الجديد ذات العادات والثقافات المختلفة أيضاً، وذلك بالإضافة إلى تأثرهم بروح البحث العلمي. وقد حاول علماء عصر النهضة أن يفسروا وجود الشعوب البدائية وخصائصها من منظور الأفكار الدينية المسيحية، ومن منظور تاريخ التوراة⁽³⁾.

(1) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مرجع سبق ذكره، ص 98.

(2) نفس المرجع، ص 182-183.

(3) محمد الجوهري، المفاهيم الأساسية في الأنثروبولوجيا (مدخل لعلم الإنسان)، القاهرة، دن، 2007، ص 73.

ولقد شكلت رحلات كريستوف كولومب (Chistophe Colombe) إلى القارة الأمريكية ما بين 1492 و1502 م أهم الرحلات في هذا العصر، إذ أحدثت ثورة في الفكر الأوروبي عامة، وفي الفكر الأنثروبولوجي بخاصة، حيث تضمنت مذكراته الكثير من المعلومات عن التنوع الثقافي لدى الشعوب التي تعرف عليها.

أما في القرن السادس عشر فظهرت محاولة الإسباني جوزيه آكوستا (José De Acosta) في التنظير انطلاقاً من معلومات جمعها عن الشعوب البدائية، فقد افترض آكوستا أن الهنود الحمر قد نزحوا أصلاً من آسيا إلى أمريكا، وبذلك فسر اختلاف حضارتهم عن تلك التي كانت سائدة في أوروبا حينذاك. وقدم آكوستا أيضاً افتراضاً آخر حول تطور الحضارة الإنسانية عبر مراحل معينة، معتمداً في تصنيفه على أساس معرفة الشعوب القراءة والكتابة⁽¹⁾.

وظهر إلى جانب آكوستا، الفرنسي ميشيل دي مونتاني (Michel De Montaigne) الذي قام بإجراء مقابلات مع بعض السكان الأصليين، الذين جلبهم بعض المكتشفين من أمريكا إلى أوروبا، وقام بصياغة مفهوم الوحشية النبيلة أو الطبيعية. ولعل من أهم كُتَّاب هذه المرحلة الأب الجزائري الفرنسي جوزيف لافيتو (Josef François Lafitau)، وأهم كتبه هو ما يصف حضارة قبيلة الإيروكواز في شمال شرق الولايات المتحدة. وهو كتاب ضخيم من أربعة مجلدات يلخص دراسة لافيتو التي استمرت خمس سنوات بين الإيروكواز. وعنوان الكتاب يوضح أن الدراسة قد انتهت إلى أن التنظيمات الاجتماعية عند الإيروكواز تساوي التنظيمات البدائية للإنسان، وهو في ذلك يقارن بين سكان ليكيا كما أوردها هيروdotus وبين الإيروكواز. ويكشف لافيتو التشابه بين النظام الأموي عند الإيروكواز مع ذلك النظام الذي وصفه هيروdotus فيما قبل الميلاد، ويتجه فكره فوراً إلى أن ذلك راجع إلى انتشار هذا النظام، وبذلك يصبح لافيتو أول الإثنولوجيين المبكرين الذين حاولوا التنظير، ومن أوائل من نادوا بمبدأ الانتشار الحضاري⁽²⁾.

وتعد أعمال جان جاك روسو (Jean-Jacques Rossow) الذي تأثر بكتابات لافيتو، من بواكير الفكر الأنثروبولوجي لاسيما كتابه: "العقد الاجتماعي"، نظراً لما حوته من معطيات إثنوغرافية حول الشعوب المكتشفة ومقارنتها بالمجتمعات الأوروبية. وعلى عكس الاتجاه العام الذي ساد بين فلاسفة القرن الثامن عشر، الذين امتدحوا فضائل ومزايا المجتمع المدني، يتصور [روسو] الإنسان في عهده الأول وحيداً يعيش بمفرده، ولا يعرف اللغة ولا الكلام ولا يمتلك شيئاً، ولا يخضع لحكومة معينة ولا يفهم معنى الدين وليست له مثل عليا معينة يسعى وراءها. ولكنه رغم هذا الجهل بالنظم الاجتماعية كان سعيداً هائناً لأن "كل ما هو طبيعي حسن وكل ما هو من صنع الإنسان فاسد وقبيح"⁽³⁾. ولا شك أن هذه أفكار نابذة مما شاهده روسو في المجتمع الأوروبي وقتئذ من تفاوت وعدم المساواة في الثروة، بين أقلية متحكمة، وأغلبية تفتقر إلى أدنى الحقوق والحريات.

كما ظهر في هذه الأثناء منتسكيو (Montesquieu)، الذي ألف كتاباً أبرز فيه العلاقة التي تربط منظومة القوانين بالعادات والتقاليد والبيئة الطبيعية، وسماه "روح القوانين"؛ ويعد هذا الكتاب مقارنة بين الثقافات للنظم التشريعية التي كان لمنتسكيو معرفة مباشرة أو غير مباشرة بها، حيث يحاول أن يستمد منها القواعد الأساسية التي تركز على النظم القانونية بين الثقافات.

(1) عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 2004، ص 36.

(2) محمد رياض، مرجع سبق ذكره، ص 269.

(3) محمد بدوي، مدخل إلى علم الاجتماع، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1985، ص 70-71.

ويتصور منتيسكيو النظام القانوني بأنه مظهر للنظام الاجتماعي الأوسع، مضفرا بشدة مع مظاهر عديدة أخرى للكل الأكبر ل (السياسة والاقتصاد والقرابة والديموجرافيا والدين، إلخ) وجهة نظر دفعت البعض إلى وصفه بأنه وظيفي مبكر⁽¹⁾.

أما كتابات الفلاسفة الألمان جورج هيغل (George Wilhelm Friedrich Hegel) وجوهان نفخته (Johan Gottlieb Fichte)، وجوهان هيردر (Johan Gottfried Von Herder) فركزت على الاختلافات الموجودة بين مختلف الأعراق والتقدم من الناحية الحضارية. ولقد لقي هذا الاتجاه العنصري المتعصب للجنس الجرمانى انتقادات في بداية القرن العشرين، كما يظهر جليا لدى الفيلسوف والأنثروبولوجي الفرنسي كلود ليفي ستروس (Claude Lévi-Strauss) الذي فند مفهوم العرق، وبالنسبة إليه لا توجد أعراق ما هو موجود هو ثقافات متميزة ومختلفة، وهذا التمايز لا يعني تفوق ثقافة على أخرى. فلكل ثقافة معايير ومنطلقات تجعلها متساوية مع الثقافات الأخرى وللحكم على ثقافة معينة يجب التمتع داخل هذه الثقافة وقيمتها ومعاييرها⁽²⁾.

5. خاتمة

لقد حاولنا من خلال هذه المقالة استقصاء مراحل من تطور الفكر الأنثروبولوجي القديم، من خلال تسليط الضوء على أشهر من مثله من الفلاسفة، والمؤرخين، والرحالة، عند اليونان والرومان في العصور القديمة، وعند الأوروبيين ثم عند العرب المسلمين في العصور الوسطى، وأخيرا في عصر النهضة الأوروبية.

ولا شك أن المتأمل في هذا الفكر، يلاحظ أن هناك إسهامات بارزة، ولا سيما عند اليونان، وعند العرب المسلمين، وخير مثال على ذلك ما كتبه كل من هيرودوت، وأرسطو، وتاسيتوس، وسترابو، والبيروني، والمسعودي، وابن بطوطة، وابن فضلان، وابن خلدون، وقد تميزت كتابات هؤلاء بالوصف المكثف والدقيق للبيئات الطبيعية المختلفة، والأحوال الاجتماعية والمعيشية للشعوب التي قاموا بزيارتها، مع محاولة التنظير في بعض الأحيان.

غير أننا نقرر بناء على ما سبق، أن الأنثروبولوجيا التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر كمجال معرفي جديد، وبدأت تستقل بذاتها كنظام أكاديمي، وتخصص مهني مع بداية القرن العشرين، لا يمكن رد أصولها إلى الفكر الأنثروبولوجي في التراث الفكري اليوناني والروماني في العصور القديمة، ولا إلى الفكر الأنثروبولوجي في التراث الفكري الأوروبي والعربي الإسلامي في العصور الوسطى -على أهمية هذا الفكر- لأنها كانت وليدة سياق فكري وسياسي معين، ساد دول أوروبا خلال القرن الثامن عشر، أي في عصر الأنوار (the age of enlightenment)، ومثل الإرهاصات النظرية الأولى للأنثروبولوجيا الحديثة.

ولعل من أهم القضايا التي نوقشت يومئذ، فكرة تطور المجتمع من الحالة البسيطة التي تمثلها المجتمعات البدائية، إلى الحالة المركبة أو المعقدة التي تمثلها المجتمعات الأروبية الصناعية، ولا شك أن احتكاك الأوروبيين بالمجتمعات البدائية ذات الثقافات المختلفة عن ثقافتهم، كان عاملا محفزا لطرح هذه المسألة على بساط البحث؛ ولقد واصلت النظرية التطورية التي بدأت مع عصر الأنوار تأثيرها في القرن التاسع عشر، من خلال ظهور أول اتجاه نظري في الأنثروبولوجيا، يدعى "الاتجاه التطوري"، تزعمته شخصيات

(1) توماس هيلاند إريكسن وفين سيفرت نيلسن، مرجع سبق ذكره، ص 29.

(2) رحال بويريك، مدخل إلى الأنثروبولوجيا، الرباط، دار أبي رزاق للطباعة والنشر، 2014، ص 98-99.

أنثروبولوجية بارزة هي: حكوب باخوفن، وجون ماكليمان، وهنري مين، وإدوارد تايلور، ولويس مورفان، وجيمس فرايزر، ويعد هؤلاء العلماء بمثابة المؤسسين الحقيقيين للأنثروبولوجيا الحديثة، لأنهم علاوة على قيامهم بتشكيل أقسامها وفروعها الأساسية، قاموا بإرساء دعائم الدرس الأنثروبولوجي في الجامعات الأوروبية.

6. قائمة المراجع:

- 1- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تقديم وتحقيق إيهاب محمد إبراهيم، القاهرة، مكتبة ابن سينا، 2009.
- 2- أكبر صلاح الدين، أحمد، نحو علم الإنسان الإسلامي: تعريف ونظريات واتجاهات، ترجمة عبد الغني خلف الله، سلسلة إسلامية المعرفة، رقم 05، واشنطن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1990، ص 114.
- 3- بدوي، محمد، مدخل إلى علم الاجتماع، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1985.
- 4- بوبريك، رحال، مدخل إلى الأنثروبولوجيا، الرباط، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، 2014.
- 5- بيلتو، بيرتي. ج، دراسة الأنثروبولوجيا: المفهوم والتاريخ، ترجمة كاظم سعد الدين، سلسلة عالم الحكمة، رقم 24، بغداد، بيت الحكمة، 2010.
- 6- الجبائي، علي عبد الله، الفكر الأنثروبولوجي في التراث الفكري العربي، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 1996.
- 7- جدلة، إبراهيم، "في نشأة علم الإناسة عند المسلمين: أبو الحسن علي المسعودي والرحلة لاكتشاف ومعرفة الآخر"، عصور الجديدة، عدد 19-20، أكتوبر 2015.
- 8- الجوهري، محمد، المفاهيم الأساسية في الأنثروبولوجيا (مدخل لعلم الإنسان)، القاهرة، دن، 2007.
- 9- محمد فهم، حسين، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، رقم 138، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، يونيو 1989.
- 10- محمد فهم، حسين، قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، رقم 98، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، فبراير 1986.
- 11- خشيم، علي فهمي، نصوص ليبية: من هيرودوتس، سترابو، بليني الأكبر، ديودورس الصقلي، بروكوبوس القيصري، ليون الإفريقي، طرابلس، دار مكتبة الفكر، 1967.
- 12- خفاجة، محمد صقر، هيرودوت يتحدث عن مصر، القاهرة، دار القلم، 1966.
- 13- رياض، محمد، الإنسان: دراسة في النوع والحضارة، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2014.
- 14- الشماس، عيسى، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، 2004.
- 15- لومبار، جاك، مدخل إلى الإثنولوجيا، ترجمة حسن قبيسي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1997.
- 16- هيلاند إريكسن، توماس وسيفرت نيلسن، فين، تاريخ الأنثروبولوجيا، ترجمة وتقديم عبده الرئيس، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2014.